جامعة الحسين بن طلال

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

صدى الحرب في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة الأندلسي

(دراسة موضوعيّة وفنيّة)

إعداد الطالبة

زينب محمود الهلالات

إشراف

الدكتور شاهر الكفاوين

قدمت هذه الرسالة استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

جامعة الحسين بن طلال، معان، الأردن

2019

قرار المناقشة

صدى الحرب في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة الأندلسي

(دراسة موضوعية وفنيَّة)

إعداد الطالبة

زينب محمود خليل الهلالات

قدمت هذه الرسالة استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب

جامعة الحسين بن طلال

8 / 4 / 2019

أعضاء لجنة المناقشة :

الدكتور شاهر عوض الكفاوين .....مشرفًا ورئيسًا

الأستاذ الدكتور حسن فالح البكور .....عضوًا

الأستاذ الدكتور عيسى قويدر العبادي .....عضوًا

الأستاذ الدكتورإبراهيم منصورالياسين .....عضوًا خارجيًا

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
فهرس المحتويات	ج
الإهداء	هـ
شكر وتقدير	و
الملخص باللغة العربية	ز
الملخص باللغة الإنجليزية	ح
المقدمة	1
الفصل الأول: ابن خفاجة، حياته الشخصيّة والأدبية	**4-17**
المبحث الأول: سيرته الأدبية	4
المبحث الثاني: ملامح شخصيته	6
المبحث الثالث: مراحل حياته	8
الفصل الثاني: شعر الطبيعة في الأندلس ومكانة ابن خفاجة فيه	**19-43**
المبحث الأول: (وصف الطبيعة قاسم مشترك بين شعراء الأندلس.	19
المبحث الثاني: بيئة ابن خفاجة الخاصة، وأثرها في ريادته لشعر الطبيعة	29
المبحث الثالث: ابن خفاجة ومزج الطبيعة بالغزل.	36
الفصل الثالث: صدى الحرب في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة الأندلسي.	44-86
المبحث الأول: الطبيعة الصامتة: الرّوضيات والنوار.	46
المبحث الثاني: الطبيعة الصائتة: الخيل والحيوانات المفترسة والطيور	69
الفصل الرابع: الدراسة الفنيَّة	**87-132**
المبحث الأول: الصورة الشعريَّة.	88
المبحث الثاني: اللغة والأسلوب.	106
المبحث الثالث: الإيقاع والموسيقى	122
الخاتمة	133
المصادر والمراجع	135

إهداء

إلى من أمطرني بسحائب عطفه ورعايته، إلى مَنْ زرع في نفسي يقينًا يُبدد كل شكٍ وارتياب، والدي حفظه الله ورعاه.

إلى ينبوع العطـــاء التي وضـــع الله الجنـــــة تحت قدميها، والدتي العزيزة.

إلى الرّوح التي سكنت روحي، مَنْ سار معي نحو تحقيق الحلم، رفيق دربي زوجي حفظه الله ورعاه.

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة رياحين حياتي إخوتي وأخواتي حفظهم الله أجمعين.

وإلى روح أخي أكرم – رحمه الله - وجعل مثواه الجنة.

إلى النور الذي أضاء حياتي وأنارها، أبنائي أيهم، و إستبرق، وتالا، وإيلين حفظهم الله.

إلى كل مَن أحب الأندلس وكتب عن تراثها الخالد.

وإلى كل مَن أحب لغة الضاد وأدبها، وأخلص لها وسعى لخدمتها، أهدي هذا البحث المتواضع.

الباحثة

زينب محمود الهلالات

شكر وتقدير

اللَّهم لك الحمد والشّكر أولًا على ما أعطيت ويسّرت وسهّلت وباركت، ولك الحمد والشكر آخرًا؛ فأنت الوهّاب الموفق لكل خير. وبعد:

فأتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور شاهرالكفاوين المشرف على هذه الرسالة، عرفانًا له بالجميل؛ لما بذله من جهد في رعاية هذا البحث، ومتابعة مراحل تكوينه منذ أن كان مجرد فكرة إلى أن أستوى على سوقه ، ولم يبخل عليّ بنصح ، أو توجيه أو إرشاد.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة، الذين تحملوا عناء قراءة هذه الرسالة ومناقشتها، وإبداء الملاحظات التي ستكون محط الاهتمام والعناية، والشكر موصول لكل من أسهم في إنجاز هذا العمل، والله أسأل أن يتقبلهُ خالصًا لوجهه تعالى.

الملخص

صدى الحرب في شعر الطبيعة عند الشاعر ابن خفاجة الأندلسي، دراسة موضوعيّة و فنيّة.

تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء أثر الحياة الحربية في شعر وصف الطبيعة الأندلسية عند ابن خفاجة من الناحيتين الموضوعيّة والفنيّة، ولاستقصاء الموضوع، والوقوف على دقائقه، جرت دراسة حياة الشاعر، والكشف عن إحساسه المرهف، ونفسيته الانفعالية شديدة الإحساس بالجمال، كما هي شديدة التأثر بالأحداث الحربية، نصرًا أو هزيمة، تلك النفسية أبدعت، وطورت شعر الطبيعة، الذي يشكل الجزء الأكبر من ديوانه ، فجعلتْ صوره الفنية ممتزجة بعناصر شعر الحرب وأدواتها . شمل ذلك الطبيعة الصامتة، والطبيعة الحية، وكأن الشاعر يرى الجمال الحقيقي في القوة التي تحمي الجمال الطبيعي، فيصور لنا البرق – مثلًا – راية النصر المخضبة بالدماء، وتارة يكون قائد معركة ينتصر فيها الربيع، بعد هزيمة المطر، فترتفع أعلام الشقائق الحمراء، وكذلك النهر، والغدير، والغمام، والحصان والنسر، والأفعى، كلها تغدو أجزاء معركة، وأدوات انتصار.

أمّا الجانب الفني من الدراسة، فقد تناول اللغة والأسلوب، وأثرهما في البناء الشعري، كما تناول الصورة الشعرية، وأنواعها وتطبيقاتها، واشتمل الجانب الإيقاعي على دراسة الأوزان والقوافي، والموسيقا الداخليّة من خلال ظواهر الأسلوبية: كالتكرار، واستخدام الجمل الإنشائية، والمحسنات البديعية وغيرها.

Abstract

"The echo of war in the poetry of nature, the poet Ibn Khafajah Alandalusy"

(Technical and objective study)

Zeinab Mahmoud Alhlalat

Al-Hussein Bin Talal , 2019

The aim of this study is to explore the impact of the life of the warrior in the poetry of the description of the Andalusian nature of her poet Ibn Khafajah, to study the subject of art ,to take up the subject and to stand on its minutes , to study the life of the poet ,to reveal sensitive sensations, emotional psychology, victory or defeat that psychological created and developed the description of nature ,which forms the bulk of his office , made the artistic image mixed with war poetry and tools : nature silent and alive .

The poet saw the real beauty of the force that protects natural beauty in the picture of lightning ,for example the banner of victory stained with blood or battle leader wins Where the spring ,after the defeat of the rain , the flags of the red anemones, as well as the river, and the horse, the eagle ,and the……All become parts of battle, and instruments of victory.

As for the technical aspect of the study, it dealt with the language and style, and their impact in the process of building poetic and dealt with poetic images, types, and application, while the rhythmic aspect included the study of weights and rhymes and music in addition to the stylistic phenomena such as repetition and constructive sentences and other improvements.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فيعد أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة أحد شعراء الأندلس البارزين، وقد ذاع شعره، واشتهر بافتنانه في وصف الطبيعة الأندلسية ، ورسمها صورًا حية ناطقة، امتزج بها بعواطفه وأحاسيسه ، حتى غلبت على شعره ، واختزنها خياله ، ومن ثم تركزت دراسات الباحثين في شعره على هذا الجانب، كدراسة بومدين كرم "الطبيعة في شعر ابن خفاجة"، ودراسة أحمد الزول " شعر الطبيعة عند ابن خفاجة ، دراسة أسلوبية "، ودراسة عبد القادر الربّاعي، وعامر بن سلمان " الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة "وغيرها ، إضافة إلى فصول وتحليلات حول هذا الموضوع في معظم كتب الأدب الأندلسي ، وجاءت دراستي " صدى الحرب في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة " ؛ ليضيف بعدًا جديدًا للموضوع، وتكشف عن جانب من الإبداع، أسهمت الحروب والفتن التي وقعت في الأندلس إبّان عصر ملوك الطوائف ، وما بعده ، في تغذيته وإثارته ، فاكتست صور الطبيعة بأوصاف أدوات الحرب وعناصرها ، مغلفة بعواطف الشاعر ، وخبراته وثقافته ، ولم تخلُّ تلك الدراسة – التي اتبعت فيها المنهج الوصفي التحليلي – من الصعوبة في تحليل النصوص الشعرية؛ لازدحام الأخيلة ، والظلال ، والألوان، وكثرة المعاني الجزئية التي توحي بها الصور .

وقد اقتضت طبيعة الدراسة، أن تكون في أربعة فصول مسبوقة بتمهيد، ومختومة بخاتمة.

الفصل الأول:(ابن خفاجة، حياته الشخصية والأدبية) ويتكون من ثلاثة مباحث، المبحث الأول بعنوان سيرته الذاتية، والمبحث الثاني ملامح شخصيته، والمبحث الثالث بعنوان مراحل حياته ثم الحديث عن آثاره ومكانته الأدبية وأقوال النقاد، ثم وفاته.

الفصل الثاني: بعنوان (شعر الطبيعة في الأندلس ومكانة ابن خفاجة فيه) ويتكون من ثلاثة مباحث، المبحث الأول بعنوان وصف الطبيعة قاسمًا مشتركًا بين شعراء الأندلس، والمبحث الثاني بعنوان جمال بيئة ابن خفاجة الخاصة ، وأثرها في ريادته لوصف الطبيعة ، والمبحث الثالث شعر ابن خفاجة ومزج الطبيعة بالغزل. معتمدة في ذلك على عدد من المصادر والمراجع القديمة والحديثة.

الفصل الثالث: (صدى الحرب في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة) ويتكون من مبحثين: المبحث الأول الطبيعة الصامتة (الرّوضيات، والمطر والغمام والبرق والشمس، والمغالبة والصراع بين الليل والنهار كرمزين للأمل واليأس، والأنهار والبحار والجداول) والمبحث الثاني الطبيعة الصائتة (الخيل ، والحيوانات المفترسة والطيور) مستعينة بمعجم ابن خفاجة الحربي .

الفصل الرابع: (الدراسة الفنية) ويتكون من ثلاثة مباحث، المبحث الأول الصورة الشعرية ومصدرها المستوحاة من عالم الطبيعة وربطها مواقف الشعرية، والمبحث الثاني اللغة والأسلوب ، والمبحث الثالث بعنوان الإيقاع والموسيقى، ودرست فيه البنية الإيقاعية من خلال الأوزان والقوافي وبحور الشعر.

وينتهي البحث بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها.

وقد اعتمدت في دراستي هذه على ديوان ابن خفاجة تحقيق يوسف شكري فرحان، الصادر عن دار الجيل، بيروت، ثم على المصادر الأندلسية التي ترجمت لابن خفاجة، وذكرت شعره منها، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خِلّكان، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّري. وكذلك المراجع التي عُنيت بشعر ابن خفاجة مثل:

تاريخ الأدب الأندلسي، لإحسان عباس، وعصر الدول والإمارات لشوقي ضيف، ملامح الشعر الأندلسي لعمر الدقاق.

وأخيرًا فأرجو التوفيق من الله لهذه الدراسة، وأن يكون فيها إضافة جديدة للمكتبة الأندلسية. وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل إلى استاذي الدكتور شاهر عوض كفاوين، لما أحاطني به من اهتمام وتوجيه فأرشد ونصح وصوّب، فجزاه الله خير الجزاء.

الفصل الأول

ابن خفاجة، حياته الشّخصيّة والأدبية

المبحث الأول: سيرته الذاتية

المبحث الثاني: ملامح شخصيته

المبحث الثالث: مراحل حياته

الفصل الأول: ابن خفاجة، حياته الشخصيّة والأدبيّة

المبحث الأول

سيرته الذاتيّة

يمثل ابن خفاجة [1] عنوانًا كبيرًا للشعر الأندلسي في أبرز ملامحه وأجلى مظاهره، وشعره متداول ذائع على امتداد العصور الأدبية حتى يومنا هذا. فهو عَلَمٌ من أعلام الشّعراء العرب المُجددين، وهو بحق شاعر الأندلس ووصّافها، وابن طبيعتها السّاحرة.

ولد أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة سنة (450هـ: 1058م) ببلدة شُقر [2]، الواقعة شرقي البلاد، وهي بلدة ساحلية بين شاطبة وبلنسية، أطلق عليها الجغرافيون اسم الجزيرة؛ لأن نهر شُقْر محيط بها، على نحو ما فعلوا بالقياس إلى شبه جزيرة أيبيريا حين أطلقوا عليها اسم الجزيرة؛ لإحاطة الماء بها من أكثر جهاتها؛ وهي جزيرة وُصفِت بجمال طبيعتها. كقول ابن دِحْيَة فيها: " وحسبك من ماء سائح، وطائر صادح، وبطاح عريضة، ورياض أريضة....، زاهية الأزاهر، قد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعصم الأساور " [3].

وفيها تلقى علومه الأولى، ثم رحل إلى المدن الكبرى في شرق الأندلس، شاطبة، ومُرسيّـة، وبلنسيّـة، يطلب العلم الشرعي، فأخذ عن شيوخ وعلماء كثيرين، أفاد منهم علمًا وثقافة دينية، واضحة في أشعاره، ومن أبرزهم : أبو علي الصَّدفي، القاضي والمحدث المشهور، وأبو عمران موسى ابن أبي تليد الشاطبي، الحافظ المحدث .[4] وقد

---

(1) ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك ، كتاب الصّلة ، تح ، بشار معروف ، دار الكتاب المصري القاهرة ، 1955، ط1، 99/1، انظر ، المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ، تح إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1968م 488/3.

(2) ، الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م ، 263/1.

(3) ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1977، ص 56.

(4) الدايـة، محمد رضوان، ابن خفاجة، ط المكتب الإسلامي، دمشق 1972م، ص 28.

ترجم ابن سعيد لابن خفاجة تحت عنوان العلماء [1] غير أنَّ الشعر غلب عليه ، فانقطع له ، وتفتقت عبقريته الشعريـّة عند المنظر الطبيعي، فرسمه جزءا جزءا بألفاظ أخذت زينتها عند كل روض، أو زهر، أو نهر. ولا تمدنا المصادر الأندلسية التي تناولت حياته وسيرته بتفاصيل عن أسرته الخاصة، إلا القول إنه خال الشّاعر ابن الزّقاق البلنسيّ.

وعلى الرغم من هذا فلا ريب أنه من العبقريات التي تزهو بها جزيرة (شُقر) ويفاخر بها المغربُ المشرقَ فيما أنتج من عبقريات شعرية، وذاعت شهرته في الأندلس والمغرب، ووصلت إلى أقصى الشرق؛ لأنه أقبل على الشعر معتمَدا على ذوقه الجِبلّيّ، وعلى طبيعة جزيرته السّاحرة، ولُقِّب بصنوبريّ الأندلس [2] ؛ تشبيهًا له بأبي بكر الصنوبري، شاعر الطبيعة المشهور في المشرق. وأطلق عليه أهل الأندلس لقب الجَنّان [3]، وقد رافقته الطبيعة في جميع أغراض شعره؛ فهو يتحدّث إليها كما يتحدث إلى شخص ذي حياة وحركة. وقد غَذّى موهبتهُ الشّعريّة بقراءة العديد من الدّواوين الشّعرية المشرقية، كديوان عبد المُحسن الصّوريّ، والصّنوبريّ، ومهيار الديلميّ، والشّريف الرّضيّ، والمتنبيّ، وأفاد منهم وبدا تأثره بهم جليًا في شعره [4]، وشعره كثير مجموع، وكانت له همّة رفيعة. [5] وشعوره بالطبيعة وإحساسه بها يتجاوز مجال الحدائق والزهور على نحو صار له مذهب خاص يُعرف بالمذهب الخفاجي [6].

---

(1) ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى ، المغرب في حلي المغرب ، تح شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط3، 1964م، ص 367.

(2) الصنوبري، أحمد بن محمد بن الحسن ين مرّار، الضّبي الإنطاكي، ت (334) هـ، له قصائد مسماة بالروضيـّات. انظر: الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973، 1/ 122.

(3) نفح الطيب،488/3.

(4) انظر عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1978م، ص 207.

(5) الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة، بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ،1967م، 265/1.

(6) روبييرامتي، ماريا خيسوس، الأدب الأندلسي، ترجمة وتقديم أشرف علي دعدور، طبعة المشروع القومي للثقافة، القاهرة، ط1، 1999م ، ص 119.

المبحث الثاني

ملامح شخصيته:

كان ابن خفاجة ذا شخصية فريدة متميزة من حيث السّلوك والطّباع، والنظرة إلى الحياة والأحياء، فقد عُرف بعفته عن التكسب بالشعر مكتفيًا بما تُدره عليه بعض ضياع والده من الرزق، كما عرف بالتأنق في مطعمه وملبسه [1]، مما يشير إلى حسه المرهف والانتقائي، وقد أشار الضبي إلى ذلك بقوله: " وكان يأتي بالجزيرة إلى المعالج الذي يبيع الفاكهة فيساومه، فإذا سمى له عددا أو وزناً نقصه من ذلك العدد أو الوزن على شرط أن يختار ما أحب بيده" [2]. فلم يكن يرضى بشيء دون أن ينتقيه ويصطفيه.

فهو متطلع إلى الجمال في كل شيء، ولعل في هذا سر شعوره العميق بنبض الحياة المتنوع في عناصر الطبيعة حوله، الزهرة والشجرة والثمرة والنهر والجبل والنجم والبدر كما منحه ذلك بصرًا دقيقًا حادًا ونفسًا متأملة تتوق إلى الجمال، وتنقب عنه حتى تعثر عليه، تتأمل فيه دبيب الحياة وأذنه تتسمع همس الجمال على وجوه العذارى ووريقات الأزهار، و في تراقص مياه النهر على إيقاعات النسائم المداعبة وتكاد يداه تلمسان مفاتن الطبيعة وعناصرها جزءًا، جزءًا، فيحلق واصفًا بخياله وأفكاره هذه الأحضان الندية التي تمنح الدفء لكل عاشق لها، وليس كمثل ابن خفاجة عشقًا للطبيعة [3] ، ومع هذا العشق والإقبال على الحياة، فإن ابن خفاجة عاش صرورة ، وربما كان لذلك أثر في شعره كبعض أوصاف المرأة التي يسقطها على الطبيعة. ويمكن أن نربط بين هذا العزوف

---

(1) ابن الأبار ، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ، التكملة لكتاب الصلة ، تح عناية عزت ، ط1، مكتب نشر الثقافة الإسلامية القاهرة ، 1956م ، ص 143.

(2) بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ص 266.

(3) خاطر، يحيى، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن خفاجة ، ط1،مؤسسة الإخلاص للطباعة والنشر ، 1999م ، ص 54.

وبين أشواقه للمرأة التي تنطلق عبر قصائده التي يسقط فيها أوصاف المرأة الحسيّة على عناصر الطبيعة - كما تقدّم-.

وفي الدّيوان كذلك إشارة إلى سفره إلى المغرب، مصطحبًا صديقه الشّاعر ابن وهبون، وهناك إشارات متعددة إلى انتقاله مرات عدة خارج جزيرة شُقر، وخارج بلنسية إلى شاطبة وإلى مُرسيه وإلى المريّة وغيرها ولكنه عاش معظم حياته في جزيرته الجميلة الوادعة.

وهو كثير المدح لنفسه، والإشادة بصفاته وشيمه الكريمة، كقوله يصف عفافه فإنه يعيش بين حالتين، عفيف النفس، ويعشق الغزل:

فـإنّـني والـعَـفـافُ مِن شـــيَمي آبَى الـدّنـايـا وأعشَـــقُ الحَسَـــنَـا
طَـوْراً مـنـيـبٌ وتـارةً غَـزِلٌ أبكي الخَطـايـا وأنـدُبُ الـدِّمَنَـا [1]

وكان في صباه صاحب حرب، رفيقه سيفه، يخوض به قتام النقع، ولجة الظلماء، ولا يطرب لغير ذلك، ومن الجدير بالذكر روح المتنبي تتبدّى خلال النص الذي يقول:

وكُنتُ على عَهدِ السّـــلَوّ يَشـــوقُني حُســـــامٌ تَغنّى لا حَمـامٌ تَرَنّمَـا
أَغازِلُ، من ســـيفٍ تألّقَ صَـــفْحةً وألـثُـمُ مِـنْ نَـقـعٍ أَزاحِـمُـهُ لَـمَـى
وأَسْرِي فأستَصفي من السّيفِ صاحباً وأركَبُ من ظَهرِ الدُّجُنّة أدهَمَا [2]

(1) ابن خفاجة، أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح، الديوان، تح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت ،د.ت ، ص 385.
(2) المصدر نفسه، 137.

المبحث الثالث

مراحل حياته:

من يُطالع سيرة ابن خفاجة الأندلسي، يلحظ أنّ حياته مرّت بطورين بارزين، هما طور الشّباب وما فيه من المجون، وطور التعّقل والإقلاع عن الملذات، ونزعات الهوى، والميل إلى التوبة وذكر الموت، ونجد هذا في قول ابن بسام: " وكان في شبيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه، كثير الوسن ما بين صفا الإنهاك وحجونه، لا يبالي بمن التبس، ولا بأي نار اقتبس، إلاّ أنّه قد نسك اليوم نسك ابن أُذينة [1] وأغضى عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه؛ وقد أثبت له ما يقف عليه اللّواء، وتصرف إليه الأهواء"[2] . ومن أمثلة شعره في مرحلة الشّباب قوله في الخمريّات والطّبيعة:

إِنَّـمـا الـعَـيْـشُ مُـدامٌ أَحـمَـرُ، قـامَ يَسـقـيـهِ غُـلامٌ أَحـوَرُ [3]
وَعَـلـى الأَقـداحِ وَالأَدواحِ، مِـن حَـبَـبٍ نـورٌ، وَتُـبـرٌ أَصـفَـرُ
فَـكَـأَنَّ الـدَوحَ كـاسٌ أَزبَـدَت وَكَـأَنَّ الـكـاسَ دَوحٌ مُـزْهِـرُ [4]

ويقول - أيضًا -:

تَشَـفَّعْ بِعلْقٍ للشَّـبـاب خطيرِ وبِتْ تَحْتَ ليلٍ، لِلوِصـال قصـيرِ
وَنلْ نَظرةً من نُضْـرةِ الحُسْـنِ، وانتعِشْ بـغُـرَّةِ رقـراقِ الشَّـبـاب غَـرِيـرِ
فما الأَنسُ، إلا في مُجَاج زُجاجةٍ ولا العيشُ إلا في صَـريرِ سَـريرِ
وإنّي، وإنْ جِئْتُ المشـيبَ لَمُولَعٌ بِطُرَّةِ ظـلٍّ، فوقَ وجـهِ غَـديرِ [5]

---

(1) ابن أذينة، عروة بن يحيى بن مالك بن الحارث الليثي، ت (130هـ)، تابعي جليل، وشاعر غزل مقدم، من أهل المدينة، من أعيان العلماء، وكبار الصالحين وثقات المحدثين، روى عنه مالك في الموطأ، انظر فوات الوفيات، ، 1973، ج2/ 451.

(2) الشنتريني ، ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح إحسان عباس ط3، دار الثقافة ، بيروت ، 1979 ، 3 /451.

(3)انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، معجم لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط3، 1414هـ ، أحور: شديد البياض والسواد في العين، مادة: (حور) .

(4) ابن خفاجة، الديوان، 78.

(5) ابن خفاجة ، الديوان ، ص 219.

هكذا يرى ابن خفاجة الحياة في شبابه، مجلس لهو، وقصف، وخمر، ووصل محبوبته بين أحضان الطبيعة، باثًّا خلال ذلك حنينَه إلى مَعاهده، وأماكن لهوه، في دعوة إلى اغتنام أيام الشباب قبل ذهابه، وهذه الأبيات تمثل نفسيَّته المحبَّة، التي يتوزَّعها جمال الطبيعة، وجمال الإنسان.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الشيخوخة والتوبة والخوف من الموت، وبخاصة أن الشاعر قد عمّر ما يزيد عن ثمانين سنة، اخترم الموت خلالها أصحابه تباعًا، فسيطر على نفسه المرهفة هاجس الموت، وتوقع نزوله به في أي لحظة، فيقف على مقابر أصحابه ويندبهم بقوله:

فَطــالَ وُقُوفي بَينَ وَجــدٍ وَزَفرَةٍ ... أَنادي رُسُوماً لاتُحِيرُ جَوابَا
وَأَمحُو جَميلَ الصَّبرِ طَوراً بِعَبرَةٍ ... أَخُطُّ بِها في صَفحَتَيَّ كِتابَا
وَقَد دَرَسَتْ أَجْسامُهُم وَدِيارُهُم ... فَلم أَرَ إِلّا أَقبُرًا وَيَبابا [1]

فجمال صبرالشاعر المهزوم يمحوه الدمع المنسكب، الذي يترك أثره سوادًا في وجهه، وفي هذا دليل واضح على شدة القلق والإحساس بالوحشة، وفرط الشعور بغربة الحياة ويروي الضبي في البغية:" أخبرني بعض أشياخي عنه أنه كان يخرج من جزيرة شُقْر، وهي كانت وطنه في أكثر الأوقات إلى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة وحده فكان إذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته يا إبراهيم تموت! يعني نفسه، فيجيبه الصّدى، ولايزال كذلك حتى يخر مغشيا عليه [2]. فهذا الخبر يؤكد يقول إحسان عباس: "موقفا مَرَضِيا في خوفه من الموت وفي إحساسه بالزمن "[3]. وحينما يقول:

أَلا سَــــاجِـل دُموعي يــا غَمــامُ ... وَطــارِحْنِي بِشَــــجوِكَ يــا حَمــامُ
فَقَـد وَفَّـيتُـهـا سِـــتّـينَ حَـولاً ... وَنــادَتــنــي وَرائــي هَـل أَمــامُ

(1) المصدر نفسه ، ص 409.
(2) بُغية الملتمس، ص 217.
(3) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 164.

وَكـانَ بِهـا البَشـــامُ مَراحَ أُنسٍ فَـمـاذا بَـعـدَنـا فَـعَـلَ الـبَشـــامُ
فَيـا شَـــرخَ الشَـــبـابِ أَلا لِقـاءٌ يُـبَـلُّ بِـهِ عَـلـى يَـأسٍ أُوامُ
وَيـا ظِـلَّ الشَـــبـابِ وَكُنـتَ تَنـدى عَلى أَفيـاءِ سَـــرحَتِـكَ السَـــلامُ (1)

فإن ذات الشّاعر تصرخ في محاولة يائسة لدفع هواجس المشيب والعودة إلى الشّباب، ويحاول أن يلتمس كل من لديه بصيص أمل في المساعدة، فيذهب شاكيًا إلى الحمام ليساعده ببكائه، وإلى الغمام، ليسعده بالمطر المُشاكل لانهمار دمعه. ولعل إحساس ابن خفاجة المؤرق باقتراب الأجل، دفعه إلى الوقوف مع نفسه يؤنبها ويزجرها، فانصرف إلى الزّهد، وأقلع عن اللهو، ورفع أكف الدُّعاء إلى الله رجاء العفو والمغفرة حتى أصبح التحذير من الدُّنيا، والدّعوة إلى معرفة حقيقتها وفنائها غرضًا شعريًا لديهِ:

أَلا قَصـــرُ كُـلِّ بَـقـاءٍ ذَهـاب وَعُـمـرانُ كُـلِّ حَـيـاةٍ خَـراب
كُـلٌ يُـدانُ بِـمـا كـانَ دانَ فَـثَـمَّ الـجَـزاءُ وَثَـمَّ الـحِسـاب
فَـلا تُـجرِ كَـفَّـكَ فـي مَـهْـرَقٍ (2) بِمـا لا يَسُـرُّ هُنـاكَ الكِتـاب
فَـإِنَّـكَ يَـومـاً مُـجـازى بِـهِ وَإِنَّ يَـداً كَـتَـبَـتـهُ تُـراب
وَلا خِطّـةٌ غَيرَ إِحـدى اِثنَتَينِ إِمّـا نَـعـيـمٌ وَإِمّـا عَـذاب
فَرُحمـاكَ يـا مَن عَلَيـهِ الحِسـاب وَزُلفـاكَ يـامَن إِلَيـهِ المَـآب (3)

إن هذا الاستعراض للحياة يبدو على نحو مترابط، فالحياة الدنيا تكون ثنائية من العمران والخراب، والعمل الصالح والعمل الطالح، والحياة الآخرة تحمل معها هذه الثنائية أيضًا: الحساب والجزاء، الجنّة والنار ولعلّ هذه الخاصية السيكولوجية لدى الشاعر تعود – بالإضافة إلى رهافة حسه – إلى أن الموت تجربة فرديّة ذاتية غير قابلة للتكرار أو الإنابة وفي هذا الطور من حياته تبرز في شعره مفردات اللّيل، والظّلام، والسّهاد،

(1) ابن خفاجة، الديوان، ص 452.
(2) الصَّحيفةُ تكتب فيها العهود، اللسان: مادة: (هرق).
(3) ابن خفاجة، الديوان، 394.

والغمام، والمداد، وتلازمه هذه الألفاظ بدلالاتها الواضحة مع النفسية المتعبة، حتى تكون جزءًا رئيسيًا من معجمه الشّعري كقوله:

وَإنّي إذا مـا اللّيـلُ جـاءَ بِفَحمَـةٍ لأَوْرِي زِنـادَ الهَمِّ فيهـا فَـأَقـدَحُ
وَأَتبِعُ طيـبَ الـذِكرِ أَنَّـةُ مُوْجَعٍ فَيَنفَحُ هَـذا حَيـثُ هـاتيـكَ تَلفَحُ (1)

إن صوت الغربة النفسية يطالعنا من وراء هذه الأبيات، فالليل طويل شديد السّواد "فحمه" يجثم على صدر الشّاعر مجسّدا للغربة، والخوف والقلق والرهبة، فليل الشاعر– بكل هذه الصور الدقيقة -هو ليل الخوف، والهمّ الذي يكاد يشعل كيان الشّاعر الموجع في غربته الرّوحية. إن الليل هو مصدر كل الصور التي ترمز إلى كآبة الشاعر وفزعه وخوفه، فهو تارة يرى الليل في شكل غراب أسود يلاحقه باستمرار، ويحاول الانقضاض عليه، وتارة يراه كالمداد الأسود الذي سال على وجه السجل فحول بياضه إلى سواد تماما كما يحول بياض الشباب إلى سواد العجز والكبر، وهو تارة يصفه بالسيف القاطع ، الذي يحول دون استمرارية الشباب، كما أن كواكب هذا الليل المتوهجة مصيرها التحول إلى رماد عندما يبزغ الفجر، هذا الفجر الذي لا يعني عند الشاعر إشراقة جديدة، بل هو فجر لا ينكشف إلا عن فقد الأصحاب والأحباب، الأمر الذي يعمق غربة الشاعر ويزيد من حنينه إلى ماضيه.

ومن ملامح نفسية الشاعر المرهفة، إحساسه بالغربة حينما اضطرته الأحوال والظروف إلى مغادرة بلده، وجزيرته التي هي قطعة من نفسه فهو عاجز تماما عن التكيف مع الواقع المكاني الراهن بكل مرارته حيث يقول:

فَيا لِشَـــجا قَلبٍ مِنَ الصَـــبرِ فارِغٍ وَيـا لِقَـذى طَرفٍ مِنَ الـدَمعِ مَلآنِ
وَنَفسٍ إلى جَوِّ الكَنيسَـــةِ صَـــبَّةٍ وَقَلـبٍ إلـى أُفقِ الجَزيرَةِ حَنّـانِ
تعَوَّضـــتُ مِن واهاً بِآهٍ وَمِن هَوىً بِهُونٍ وَمِن إخوانِ صِـــدقٍ بِخُوّانِ

(1) ابن خفاجة، الديوان، 316.

وَما كُلُّ بَيضـــاءٍ بَروقٍ بِشَـــحمَةٍ وَما كُلُّ مَرعىً تَرتَعيهِ بِسْـــعدانِ [1]

فَيا لَيتَ شِـــعري هَل لِدَهرِيَ عَطفَةٌ فَتُجمَعَ أَوْطَـارِي عَلَيَّ وَأَوطـاني [2]

فذات الشاعر لا تتقبل المكان الجديد، حتى إن كل ما يحمله هذا الأخير من دلالات حسية يغدو غريبا بالنسبة إليها، فمنشأ هيامها لا يعدله مكان آخر، وإن حاكاه مظهرا وشابهه منظرا:

وَما كُلُّ بَيضـــاءٍ تَرُوقُ بِ شَـــحمَةٍ وَلا كُـلُّ مَرعىً تَرتَعيـه بِسَـــعْدانِ

فهو يتشوق فيها للوطن، فلا يغني عن الوطن أي مكان آخر، مهما كان جميلا أو ممتعا، فالمتعة الحقيقية أن تكون في موطنك، فليس كل لون أبيض برّاق يدلّ على الشّحمة، وليس كلّ مرعى ترعاه الإبل نبات السّعدان، وقد أخذ معنى الشّطر الأول من المثل: " ما كلُّ بيضاء شحمةٌ ولا كلُّ سوداءَ تمرةً "[3] ، أمّا الشّطر الثاني فقد أخذ معناه من المثل: " مَرْعى ولا كالسّعدان "[4] . فما كل بيضاء بشحمة، وما كل مرعى بسعدان، والفرق شاسع بين شيء داخل الوطن وشيء يشبهه خارجه، حتى الأشخاص الذين يعمرون هذا المكان– مكان الغربة -لا يشبهون الأشخاص الذين تعود الشاعر عليهم وصادقهم وآخاهم في وطنه والحقيقة أن الجمالية لا تنبعث من المكان وحده بل من الأشخاص الذين يحتويهم هذا المكان أيضا: " فالناس هم الذين يرسمون المكان ويشكلونه ويلونونه ويبرزون جماليته"[5] . ولعل توظيف ابن خفاجة للأمثال العربية، وما تحويه من تكثيف للمعنى، يشيْ بسعة ثقافته وتعدد مصادرها.

(1) نبات شوكي ترعاه الإبل فتسمن معه، اللسان، مادة: (سعد).
(2) ابن خفاجة، الديوان، 458- 459.
(3) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، ط1، تح محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ت، 281/2.
(4) المصدر نفسه ج275/2.
(5) النابلسي، شاكر .جماليات المكان في الرواية العربية .ط .1 بيروت :المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1994م، ص 200.